مفتتح

يمكن لنا أن نصنع فرقاً!

وسيم الكردي

إذن، فإنه لم يكن اقتتالاً وحسب، ولم تكن الأجساد البشرية كافية للفصل بين متناحرين في الشوارع، إن صورتي الشاب والمرأة اللذين واجها مسلحين متناحرين في غزة حققت غايتها التي نتطلع إليها في الحلم، لكنها لم تصل إلى غايتها أو بعض غايتها على الأرض. إذن، فإن ما جرى كان أبعد من أن تجابهه قوة أخلاقية، فتحول دون استمراريته، ومن ثم اندفاعه إلى الحالة التي آلت إليها أوضاعنا. إنه صراع سياسي بامتياز وبوسائل عنيفة. ومهما كانت الذرائع والمبررات، فإن النتائج على الأرض كانت أقسى كثيراً من تلك الضرورة المدّعاة لتقويم الوضع وتصويب المسار.

فالسلطة لها غوايتها، ويبدو أن البشر على اختلافهم غير قادرين على الصمود أمام الغواية، فالمصلحة في تشعباتها هي البوصلة، إن كانت بوصلة حقاً، التي توجه الفعل في حالتيه الواعية وغير الواعية، وإن الفعل حين ينفلت من عقاله فسيفضي إلى ما هو متوقع وغير متوقع. فهل علينا أن نلوم أنفسنا على ما إلنا إليه، أم أن اللوم لم يعد كافياً، ولن يكون كافياً لتقويم الوضع وتصويب المسار مرة أخرى؟!

إن فصلاً جديداً ينشأ، وهو فصل إتمام لانفصال لا ريب فيه، وليس مجرد بداية له، إن ما كان يحدث على مدار عقود كان يؤسس لذلك، إنه شرخ إضافي، شرخ يجد له مكانته مع شروخ كثيرة، فيها ما نحن سبب فيه، وفيها ما لم نكن سبباً فيه. والمشكلة ليست في الشروخ حين تحدث، فهذا يحصل لكل شعب على وجه الأرض، ولكن المشكلة في التعامل معها، إننا نمضي وكأن لا شيء حدث، ونستمر في سيرنا المعوج إلى ما شاء الله. وإن سألت، فإنك ستجد ما يكفي من التحليل والاستنتاج، لكن الفعل يتحرك في مسار آخر، وكأن ما يقال يتوجب أن يتضاد مع ما يُفعل.

نحن، باختصار، لم نعد كما كنا، فلم نعد نعتقد بالمجتمع في كليته، فكل أيديولوجيا أو جماعة ترى في نفسها الممثل للكل، والحريص على مصلحة الكل، والقادرة على تحقيق مبتغيات الكل، وفي كل فعلها فلا تمثيل ولا مصلحة ولا مبتغيات، بل هناك أكثر مما يكفي من التشريخ والتشظية. إننا نسقط في وحل الممالك الصغيرة، التي في تفتتها ما يمكن أن يؤشر لنا إلى أي مستقبل ينتظرنا.

إن صوت "الحقيقة" هو صوت واحد، صوت لا يرى غير ذاته، لا يرى سوى وهم صورته وصدى صوته، فلا يرى الصورة إلا في مرآة مشروخة، يظنها مصقولة ومستوية ولامعة ومكتملة. . . . ولا يسمع سوى صدى صوت أحادي ذي نبرة واحدة، إنهما معاً؛ صورة وصدى يقصيان كل الصور وكل الأصوات، ولا ينبعث منهما سوى الإيغال في تقريظ الذات وفي الإمعان في تشويه الآخر.

أما الناس، فإنهم من همٍّ لِهمٍّ، ومن وجع لآخر، ولا يراد منهم سوى أن يكونوا حشوداً، لا صوت لها بل صدىً لذلك الصوت، وصورة لتلك الصورة، يُحشدون حين يلزم التحشيد، ويفرطون حين يلزم الفرط. والتحشيد والفرط يجريان ضمن مسوغات، أحياناً وطنية، وأحياناً أيديولوجية، وأحيانا دينية، وأحيانا أخلاقية، وأحياناً. . . إنه التلقين. . . فليس هناك سوى الحشو، إنه التسيير، فليس هناك سوى الإطاعة.

وهذا ليس وليد هذه السنوات الأخيرة التي يطغى فيها كلاهما؛ التحشيد والتسيير، إن ذلك له جذوره في بنية المجتمع وثقافته ومؤسساته، ودون مراجعة حادة للصورة والصوت في امتدادهما التاريخي وفي انتشارهما المجتمعي، فإن الأمر لن يبقى على حاله وحسب، بل سينزلق أكثر فأكثر إلى تشظيات أخرى وشروخ أكبر.

ولأن المدرسة هي واحدة من أكبر المؤسسات التي يقوم عليها المجتمع، فهي في صلب ما ورثناه من صورة وصوت، وإن كان من الصعب التعويل كثيراً على أثرها المجتمعي على الأقل في صورتها الراهنة، فقد يكون ممكناً، وبإمكانية ضئيلة أن تُحدث فرقاً. نحن نعلم أن المدرسة كمؤسسة اجتماعية تسير في فلك النظام القائم وثقافته وضمن معايير المجتمع الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، ولكنها قد تمتلك هامشاً ممكناً يتيح للمجتمع أن يتنفس تنوعه، وأن يتحرك ضمن اختلافاته. هناك في المدرسة، كما في مؤسسات المجتمع الأخرى، يسري التحشيد والتسيير، ولهذا فإن الحزب السياسي أي حزب سياسي سيجد مادته البشرية الجاهزة، التي جهزتها له المدرسة، كما جهزتها له المؤسسات الاجتماعية الأخرى طبعاً.

إن مدرسة مختلفةً، أو معلماً مختلفاً، سيصنع فرقاً بالتأكيد! إنه الفرق الضئيل الضروري لفرق أكبر، الفرق الذي يتراكم ويُبنى عليه ويؤسس لمجتمع يحقق أفراده فيه ما يتطلعون إليه من أحلام على اختلافها وتنوعها.

إن ما يشهده المجتمع الآن، وإن بدا سوداوياً، يجب أن لا ينتقص من

الرغبة والقدرة والطاقة على إحداث فرق كل يوم، إن تلامذتنا بحاجة إلى أن يتكونوا كأفراد لهم ذواتهم المتألقة، التي تنبعث منها إمكاناتهم الكامنة، وتتيح لهم إمكانية التفكير في حاضرهم ومستقبلهم، والعمل وفقاً لرغائبهم وتطلعاتهم. ينبغي لنا أن نتيح لهم مناخات من الحرية والتنوع في الرؤى والتصورات والخيارات والاقتراحات، إن في ذلك ما يمكن أن يحقق فرقاً يتجاور فيه الجميع، فلا مكان فيه لإلغاء أو إقصاء بغض النظر عن الذريعة والإدعاء الأيديولوجي . . . إن الادعاء الأيديولوجي في كل أحواله هو ادعاء إقصائي إلغائي، وفي هذا ما ينذر بخراب المجتمع، ويقلّص إمكاناته في مقاومة فاعلة ومنتجة، ويقلل من احتمالات انطلاقه من عثراته وعواهنه.

كأنه اعتذار لعذر

على الرغم من الحالة السياسية الراهنة، فإن هناك ظاهرة تستحق التقدير والاهتمام، وهي مثابرة قطاع من المعلمين والمعلمات على الانضمام لأنشطة تربوية تمكينية، وقد لاحظنا في المركز خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وعلى الرغم من سخونتها وغليانها، رغبة مطّردة للانضمام إلى المساقات والورش والفعاليات التربوية المختلفة التي نظمها ولا زال المركز ينظمها في هذا الصيف، إن في ذلك مؤشراً إلى رغبة عميقة لدى هؤلاء المعلمين في التمكن الذاتي والتطور المهني وتبادل الخبرات والتجارب، إن هذا المؤشر له دلالاته التي ستصنع فرقاً بالتأكيد. وفي الوقت الذي نقدر لكل معلم ومعلمة رغبته في الانضمام إلى هذه الفعاليات، فإننا نعتذر لأن طاقتنا محدودة، وليس بإمكاننا لدواعٍ عملية ومهنية ومالية أن نستوعب كل المتقدمين لهذه الفعاليات، ونضطر للاختيار، آخذين بالاعتبار معايير كثيرة ومتغيرة من فعالية وأخرى؛ كالرغبة، والتخصص، والموضوع، والفئة العمرية لطلبتهم، والجغرافيا، والخبرات السابقة . . . وغير ذلك من الاعتبارات، ولكي نكون واضحين، فإننا لا نقصد بالمعايير انطباقها جميعها وبآلية واحدة على الجميع، بل هي متغيرة في ضوء الفعالية وطبيعتها، ولم يكن في اختياراتنا في كل الأحوال معايير تقوم على المفاضلة بين معلم ومعلم في الكفاءة، فنحن نعتقد أن كل معلم يرغب طوعاً للانضمام إلى فعالياتنا يستحق قبوله على هذه الرغبة فقط، ولكن إمكاناتنا محدودة، ولذلك فإننا نعتذر لكل معلم ومعلمة لم نتمكن من ضمه لأية فعالية من فعالياتنا، آملين أن يتسنى ذلك في أنشطة لاحقة.

تجليات خبرة المعلمين النوعية موثقة

حينما ينخرط معلم في نشاط تمكيني، أو مساق، أو انخراط في رواية أو فيلم أو دورة أو مشاركة في مؤتمر أو . . . ، فإن في هذا النشاط ما يمرره بخبرة جديدة، ولكي تأخذ هذه الخبرة مداها، فإن لها تجليات، ومن تجلياتها أن يتحقق شيء ما من هذا الخبرة في العمل المباشر مع الطلبة، ويحدث كثيراً أن يعبر معلمون عن الفائدة التي تحققت لهم في مساق ما، ويشيرون إلى أنهم جربوا ذلك مع تلامذتهم، وكانت تجاربهم ناجعة ومثيرة. إن التعمق في التجربة والمراكمة عليه يتطلب توثيقها ومحاورتها، ففي ذلك ما يصقلها وينميها ويبعث فيها حياة جديدة، وفي هذا السياق، فإن هذه الخبرات الجديدة مدعوة للتعبير عن ذاتها وقصها من خلال كتابتها أو توثيقها، كما تتطلب أن نرى من خلالها انطباعات التلاميذ أنفسهم، فإذا ما كان عملنا في تنمية ذواتنا يقوم أساساً على رغبتنا في تطوير عملنا مع طلبتنا، وإعطاء هذا العمل معنى أعمق، فإننا بحاجة إلى استكشاف انطباعاتهم وآرائهم وملاحظاتهم، فهل يمكن لنا كمعلمين أن نأخذ بعين الاعتبار ذلك، وأن نقص حكايتنا المختلفة بتفاصيلها الغنية؟ إننا ندعوكم إلى كتابة هذه التجارب التي تعتقدون أنها قد صنعت فرقاً لكم وفرقاً لدى تلامذتكم، وصفحات "**رؤى تربوية**" مفتوحة لكم لسردها.

جانب من ورشة العمل التي نظمها مركز القطان في سرية رام الله الأولى برام الله خلال الفترة بين 23 – 28 حزيران 2007، بعنوان "توظيف مسرح المضطهَدين في السياق التربوي"، بالتعاون مع مؤسسة "عشتار"، واستهدفت معلمي الدراما والمعلمين الذين يوظفون الدراما في التعليم، وذلك في إطار المهرجان الدولي الأول لمسرح المضطهدين.